كل الفضائل تأتي منها[1]

مسرحية في فصلين

١٩١٠

(١) كل الفضائل تأتي منها : مثل روسي ساخر عن الخمرة : « ماء الحياة » .

الشخصيات

العجوز آكولينا : ٧٠ سنة ، ما تزال متينة البنية ، رصينة ، على نمط الزمن القديم .

ميشيل : ابنها ، ٣٥ سنة ، مشبوب العاطفة ، ممتلىء بالأنانية والغرور ، قوي جداً ، متين البنية .

مرثا : كنّتها ، ٣٢ سنة ، متذمّرة ، تتكلم كثيراً وبسرعة .

باراشا : ١٠ سنوات ، بنت مرثا وميشيل .

الجابي تاراس : ٥٠ سنة ، رصين ، يتكلّم بهدوء ، ويعطي نفسه أهمية .

عابر سبيل : ٤٠ سنة ، نحيل ، يتكلم كثيراً ، وهو ثرثار ، وبخاصة عندما يشرب .

اينياس : ٤٠ سنة ، حكّاء ، مرح ، غبيّ .

جار : ٤٠ سنة .

تجري الأحداث في الخريف ، داخل كوخ خشبي .

الفصل الأول

المشهد — ١ —

« الأم آكولينا تغزل ؛ الزوجة مرثا تعجن ؛ الطفلة باراشا تهزّ الرضيع » .

مرثا : اوه ! قلبي لا يتوجّس خيراً . ما الذي منَعه من العودة ؟ هذا ، كالمرة الماضية عندما سافر مع الأخشاب وشرب بنصف المال تقريبا ، ثم إن كل شيء بعد ذلك سيرتدّ علي .

آكولينا : ما جدوى هذه الأفكار السوداء . لم يَفُتْ الوقتُ بعد . فالمكان بعيدٌ جداً . من شيء إلى شيء آخر . . .

مرثا : آكيم عاد منذ زمن . مع أنه سافر بعد رجلنا ؛ ورجلُنا لم يعدْ بعد . ما عندنا غيرُ الهمّ ، هذه سعادتي كلها . . .

آكولينا : آكيم ذهب بطاب ، أما رجلنا فذهب إلى السوق .

مرثا : ما كنتُ سأقلقُ لو كان وحده ، لكنه سافر مع اينياس . وعندما يكون مع هذا الخنزير فلا بدّ له من أن يسكر . عبثاً أكدح طوال النهار ، كل العبء يقع عليّ . لا بدّ لي على الأقل من بعض السرور . لكن سروري كله هو في الحركة من الصباح إلى المساء .

المشهد — ٢ —

« ينفتح الباب ويدخل تاراس ، يصحبه عابر سبيل رث الثياب »

تاراس : طابَ يومكم جميعاً . جئتكم بعابر سبيل .

عابر السبيل ، مسلّماً: تحياتي لأصحاب البيت .

مرثا : أنتَ تُكثِر علينا من هؤلاء العابرين . آويْنا واحداً نهار الاربعاء . الدورُ دورُنا دائماً . كان يجب أن تأخذه إلى بيت ستيبايند . فليس عنده أولاد . أما أنا فعندي من العمل ما يكفيني مع أهل بيتي . وأنت تأتي بهم دائماً إلينا .

تاراس : كل واحد بدوره .

مرثا : مهما تقلْ فان عندي أولاداً . ثم إن صاحب البيت ليس هنا .

تاراس : لا يحتاج إلا إلى النوم ، ولن يَحْمل مكانه معه .

آكولينا ، للعابر : ادخلْ ، تعالَ واجلسْ ، أهلاً بك .

عابر السبيل : أشكركِ كثيراً . هل تتفضّلون باطعامي ، إن أمكنَ ؟

مرثا : لم تكدْ ترانا ، وتطالب على الفور طعاماً . ألم تجلْ في القرية ؟

عابر السبيل ، متنهّداً : ليس هذا من عادتي ، في مثل وضعي . وليس معي زادٌ .

(تنهض آكولينا ، وتتناول رغيفاً ، وتقطع منه قطعة وتقدّمها له) .

عابر السبيل ، يأخذ الخبز : شكراً .

(يمضي ويجلس على متكأ النافذة ويأكل بشراهية) .

تاراس : وأين ميشيل ؟

مرثا : حَمَلَ العلَفَ إلى المدينة . حان وقتُ عودته لكنه لم يصلْ بعد . يَخْطر ببالنا دائماً أنْ قد حَدَثَ له حادث .

تاراس : ماذا يمكن أن يحدث له ؟

مرثا : لن يحدث له خيرٌ يُذكَر ، أما الشر فيمكن أن نتوقّعه دائماً .

آكولينا ، تعود إلى الغزل وتخاطب تاراس مشيرة إلى مرثا : إنها لا تتوقف عن الكلام أبداً . وما فائدة الكلام ؟ أعلمُ ، بالطبع ، أننا ، نحن النساء ، مهمومات دائماً ، في حين أنه لا يكاد يخرج من البيت حتى يرمي همومه عن ظهره . وفي هذه الحالة ، نتوقّع في كل لحظة أن نراه يعود إلى البيت سكران .

مرثا : كنا سنكون أقل قلقاً عليه لو كان وحده ؛ لكنه اصطحب اينياس .

تاراس ، مبتسماً : واينياس ايفانوفتش هو حقاً هاوٍ كبير للشراب .

آكولينا : كفى كلاماً ، إنه لم يرَ اينياس كثيراً . وسيذهب في طريقه كما أن اينياس سيذهب في طريق أخرى .

مرثا : قولي ما شئتِ ، يا أمي . أما أنا فقد وصلتْ الأمورُ إلى هنا . (تشير إلى حنجرتها) . مادام بلا شراب فأنا لا أذمّه ،

لكنه إن شرب فأنتِ تعلمين كيف يصبح . لا يجوز لي أن أفتح فمي . مهما أفعلْ فكل شيء يضايقه .

تاراس : آه ! من النساء المسنّات ! لنفرضْ أنه شرب . طيّب ! دَعيه يشرب قليلاً ، ذلك النفّاج . فإذا ما غفا غَفْوة عاد كل شيء إلى طبيعته . لكنكن ، أنتن ، تُحببْن المشاكسة .

مرثا : افعلْ ما تشاء فعندما يسكر لا يرضيه شيء .

تاراس : لكن حاولي أن تفهمي . في بعض الأحيان ، لا يَسعُنا إلا أن نشرب . أنتن النساء المسنّات تبقين في البيت ، أما نحن فلا نستطيع ذلك ؛ إن لنا أعمالا ، أو قد نكون بين الناس . وحينئذٍ نشرب جرعة ، وليس ذلك شراً عظيماً .

مرثا : مهما تقل فنحن جديرات بالرثاء . اوه ! ما أشقّ حياتنا ! لو أُجبرتَ على أن تعمل عملنا لمدة ثمانية أيام فقط لقلتَ الكثير ! يجب أن نَعْجن ونخبز ونطبخ ونغزل وننسج ، ونهتم بالماشية وبالبيت ، ثم يجب أن نغسل الصغار وأن نُلبسهم ونُطعمهم . كلُّ شيء على ظهرنا ، وأقلُّ الأشياء يُضايقه ، هو نفسه يُقرّ بذلك ، ولا سيما عندما يشرب . اوه ! ما أشقى النساء !

عابر السبيل ، وهو يمضغ : هذه هي الحقيقة جميع كوارث الحياة تأتي من الكحول : إنها مَصْدر كل شر .

تاراس : عجباً ، وأنتَ أيضاً تشكو من الكحول .

عابر السبيل : ليس الأمر كذلك تماماً ، لكنني كابدت آلاماً منها ، وكان يمكن أن يكون مجرى حياتي مختلفاً أشدّ اختلاف .

تاراس : برأيي ، أننا إذا شربْنا شرباً معقولاً ، فإن يضرّنا ذلك .

عابر السبيل : وأنا أقول : إن في الكحول قوةً عطالة كبيرة قادرة على أن تفسد الإنسان كلّياً .

مرثا : هذا بالذات ما قلتُه : كدّي ، واجتهدي ، فلن تنالي إلا مكافأة واحدة : أن تُشْتَمي وتُضْرَبي كالكلاب .

عابر السبيل : وأكثر من ذلك ، أن مِنْ بين هؤلاء الأشخاص مَنْ يَفْقد عقله تماماً ومن يَفْعل أشياء لا يجوز أن تُفْعَل . فهو ما لم يشربْ لا يمسّ شيئاً ، مهما أعطيتَه ؛ لكنه ما ان يشرب حتى يحمل كل ما يقعُ تحت يده . كم ضُربتُ ، بل إنني سُجنت . ما دمنا لم نشرب نفعل كل شيء بشرف وبشكل ملائم — وما إن يشرب ذلك الشخص الذي أحدثك عنه حتى يلتقط كل ما يقع تحت يده .

آكولينا : أَعتقدُ أن ذلك يتوقّف على الشخص .

عابر السبيل : يتوقّف على الشخص ما دام في صحة جيدة ، أما هذا فهو مَرَضٌ .

تاراس : عجباً ، مرضٌ ! ما يلزمه إنما هو ركلةٌ قوية ، فمثل هذه الركلة تزيل المرض بسرعة . في هذه الأثناء أتمنّى لكم مساءً سعيداً .

(يخرج . تُنشّف مرثا يديها وتستعد للخروج) .

آكولينا ، تنظر إلى عابر السبيل وترى أنه أكل خبزتَه : مرثا ، يا مرثا ، أعطيه خبزاً أيضاً .

مرثا : ما أكله كافٍ . سأذهبُ لأرى السماور قليلا .

(تخرج ، تنهض آكولينا ، وتدنو من الطاولة ، وتأخذ الرغيف وتقطع منه قطعةً تقدّمها لعابر السبيل) .

عابر السبيل : شكراً ، كان بي جوعٌ شديد .

آكولينا : أنت عامل ؟

عابر السبيل : أنا ؟ كنت ميكانيكياً .

آكولينا : أكان مُربحاً عملُكَ ؟

عابر السبيل : كنتُ أحصل على خمسين روبلاً ، وحتّى ستين روبلا . . .

آكولينا : يا لها من مشكلة ! وكيف تصرّفتَ حتّى وصلتَ إلى هذه الحالة ؟

عابر السبيل : لست وحدي الذي وصل إلى هذه الحالة . وإنما وصلتُ إلى هذه الحالة لأن الأزمنة تغيّرت بحيث أن الرجل الشريف لا يستطيع أن يعيش اليوم .

مرثا ، حاملةً السماور : يا ربي ! لم يأتِ بعد . لن أفلتَ ، سيأتيني سكران . قلبي يُحسّ بذلك .

آكولينا : حقاً ، لعله كان منهمكا في المجون ؟

مرثا : بلا شك ! العبء كله علي . يجب أن أعجن ، يجب أن

أخبز ، يجب أن أطبخ ، وأغزل وأنسج ، وأهتم بالماشية ، كل العبء يقع علي . وهؤلاء الصغار (يبكي الرضيعُ في مهده) . باراشا ، هزّي الصبي ! اوه ! يا لهذه الحياة الشقية ! عندما يشرب لا شيءَ يرضيه ! . . . والويل لمن يقول كلمةً منحرفةً . . .

آكولينا ، تنقع الشاي : عجباً ، هذا آخر ما بقي من الشاي ! هل قلتِ له أن يَحْمل معه شاياً ؟

مرثا : بلا شك . كان ينوي أن يأتي بالشاي . فهل يأتي به ؟ هل يخطر البيتُ ببالهِ ؟

(تضع السماور على الطاولة ، يبتعد عنها عابر السبيل) .

آكولينا : لم ابتعدتَ عن الطاولة ؟ ستتناول الشاي .

عابر السبيل : أشكرك على حُسْنِ ضيافتك .

(يرمي بسيجارته ويدنو من الطاولة) .

مرثا : وما وضعُكَ ؟ أنتَ فلاحٌ أم شيء آخر ؟

عابر السبيل : الواقع أنني لستُ فلاحاً ولست نبيلاً ، أنا بينهما .

مرثا : وكيف ذلك ؟

(تقدّم له فنجاناً) .

عابر السبيل : شكراً . ذلك أن أبي كان « كونتاً » بولونياً ، ثم كان لي آباء كثيرون ، ثم كان لي أمّان .

آكولينا : ياربي ! كيف ذاك ؟

عابر السبيل : هكذا : كانت أمي تعيش في الدعارة ، أي في تعدّد الزوجات . وكان لي آباء كثيرون . وكان لي أمّان ، لأن الأم التي ولدتني تركتني وأنا في طفولتي الأولى . لكن البوابة عطفتْ علي وآوتني . سيرةُ حياتي ، على الإجمال ، مربكة جداً .

مرثا : اشربْ شايك . طيّب ! ثم درّبوك على الصنعة ؟

عابر السبيل : لم يكن تدرّبي باهراً . لم تكن أمي الحقيقية ، بل أمي المتبنّية هي التي وضعتْني عند حداد . أي ان الحداد كان أوّل من ربّاني . وكانت تربيتُه تقوم على أنه كان يَضْرب على رأسي أكثر مما كان يَضْرب على سندانه وعبثاً كان يضرب ، فانه لم يستطعْ أن يُزيل مني مواهبي ، مع ذلك . ثم اشتغلتُ عند صانع أقفال ، وهناك كُرِّمتُ وبلغتُ هدفي . وصرتُ عاملاً أول ، وتعرّفتُ بأشخاص متعلّمين ، وأصبحتُ عضواً في الحزب . واستطعتُ أن أتآلف مع الموهبة الخطابية . وكان يمكن أن تكون حياتي راقيةً لأنني كنت أملك موهبةً عظيمةً .

آكولينا : لا شك .

عابر السبيل : وهنا جرَفني الإعصار ، أي النير المستبد بحياة الشعب ، وسُجنتُ ، وبالتالي حُرمتُ من حريتي .

مرثا : ولمَ ذاك ؟

عابر السبيل : من أجل الحقوق ؟

مرثا : أية حقوق ؟

عابر السبيل : أية حقوق ؟ الحقوق التي تقضي ألاّ يظل البرجوازي بلا عمل ، وأن ينال الكادحُ الذي يعمل أجْرَ عمله .

آكولينا : وأيضاً بصدد الأرض ؟

عابر السبيل : بدون شك ! بصدد المسألة الزراعية أيضاً .

آكولينا : عسى أن يُنعِمَ الربُ علينا بهذه النعمة ، والعذراء ! فنحنُ في ضيقٍ شديد .

عابر السبيل : وحينئذٍ جرفَتْ قاربي ، من جرّاء ذلك ، أمواجُ بحر الوجود .

آكولينا : والآن .

عابر السبيل : والآن ؟ الآن سأذهب إلى موسكو . سأعرض نفسي على أحد المستغلّين . ماذا تريدين مني ، سأرضخ ، سأقول له : أعطني أيّ عمل شئتَ ، وخُذْني » .

آكولينا : هيّا ، اشربْ بعدُ .

عابر السبيل : ألف منّةٍ لكِ ، أي شكراً .

(تُسْمعَ ضجة وكلامٌ عند المدخل) .

آكولينا : آه ! هذا ميشيل يأتي في موعد الشاي بالضبط .

مرثا ، تنهض : آه ! يا ويلي ! ها هو مع اينياس . معنى ذلك أنه سكران .

(ميشيل واينياس يَدْلفان من الباب . كلاهما سكران) .

اينياس : مساء الخير يا جماعة . (يصلي صلاةً قصيرة وهو يرسم

علامة الصليب أمام الأيقونات) . ها نحن قد وصلنا أخيراً . . . في موعد الشاي بالضبط . ذهبْنا إلى الصلاة ، فكانت مُرتّلةً ؛ ذهبنا إلى الغداء ، فكان مأكولاً ؛ ذهبنا إلى الحانة فكان الموعدُ مضبوطاً . ها ! ها ! ها ! أعطونا شاياً نقدّمْ لكم خمراً . هل هذا مُرْضٍ ؟

(ينفجر ضاحكاً) .

ميشيل : من أين جاءَ هذا الرجلُ ؟ (يُخرج من قفطانه زجاجةً ويضعها على الطاولة) . هاتي الكؤوس .

آكولينا : ماذا ، هل وُفّقتَ ؟

اينياس : وكيف لا ، شربنا ، ولَهَوْنا ، وجئنا بشيء من الغلّة إلى البيت .

ميشيل ، يصبّ في الكؤوس ، ويقدّم كأساً لأمه ، وكأساً لعابر السبيل : خذْ ، اشربْ أنتَ أيضاً .

عابر السبيل ، يتناول الكأس : أشكرك بصدق ، على صحّتك .

(يشرب) .

اينياس : انظر ، يا رجل ، كيف يعبّ الخمرَ . على الريق ، تسري هذه الخمر في عروقك .

(يملأ له كأسه مرة أخرى) .

عابر السبيل ، يشرب : عسى أن تُوفّقوا في كل مشاريعكم .

آكولينا : حسناً ! وهل وفّقتم في بيعكم ؟

اينياس : وُفّقْنا أم لم نوفّق ، لقد شربْنا بكل شيء . أليس كذلك ، يا ميشيل ؟

ميشيل : أجل ! لا داعي للانزعاج . يحق لنا أن نلهو مرّةً .

مرثا : لا داعي لأن تتباهى . لا خيرَ في ذلك . نحن نموت من الجوع في البيت ، وأنت ترتكب الحماقات .

ميشيل ، مهدّداً: مرثا !

مرثا : ماذا ، مرثا ! أنا أعلم جيداً أنني مرثا . آه ! كنتُ أودّ فقط ألا أراك ، أيها السكير الوقح .

ميشيل : انتبهي ، مرثا !

مرثا : لا أريد أن انتبهَ ولا أريد أن أراك .

ميشيل : قدّمي الخمر ، قدّميه للمدعوين .

مرثا : أفٍ منك ، أيها الكلبُ الوقحُ ! لا أريد أن أكلّمكَ .

ميشيل : لا تريدين ! يا جيفة ! ماذا قلتِ ؟

مرثا ، تهزّ الرضيع ، فيدنو منها الولد ، مرعوباً : ماذا قلتُ ؟ قلتُ : إني لا أريد أن أُكلّمكَ ، هذا كل ما في الأمر .

ميشيل : أنسيتِ ؟ (ينهض عن الطاولة ، ويضربها على رأسها ، وينتزع منديلها) . هذه واحدة !

مرثا : اوه ! اوه ! اوه !

(تجري باكيةً إلى الباب) .

ميشيل : لن تذهبي ، يا حقيرة !

(يَنْقضّ عليها) .

عابر السبيل ، ينهض على عجل عن الطاولة ويمسك بميشيل من يده :
لا حقّ لك في ذلك .

ميشيل ، يقف وينظر إلى عابر السبيل بذهول : أتشتهي أن ينالكَ الضربُ ؟

عابر السبيل : لا حقّ لك في أن تُعرِّضَ النساءَ للإهانة .

ميشيل : آه ! يا بن الكلبة ! أترى هذه ؟

(يُريه قبضته) .

عابر السبيل : لن أسمح بالشروع في استغلال النساء .

ميشيل : سأركلك ركلةً عجيبة .

عابر السبيل : اضربْني ! هيّا ! اضربْني !

(يدير له خدّه)

ميشيل ، يهزّ كتفيه ويباعد بين يديه : طيبّ ! وإذا بدأتُ . . .

عابر السبيل : لن يزيد ذلك في الأمر شيئاً ! اضربْ !

ميشيل : أرى أنك رجل غريب الأطوار .

(يخفض ذراعيه وهو يهز رأسه) .

ابنياس لعابر السبيل : يتّضحُ على الفور أنك مشغوفٌ بالنساء .

عابر السبيل : أنا مشغوف بالحق .

ميشيل لمرثا ، يدنو من الطاولة وهو يتنفّس بصعوبة : طيّب ! مرثا ، أضيئي شمعةً لهذا . فاولاه لهشّمتك .

مرثا : ماذا يمكن أن أتوقع منك ، يجب أن أتعذّب طوال العمر ، فأعجنُ وأخبز ، ثم . . .

ميشيل : دعي ذلك ، كفى ، حسبُكِ . (يملأ كأس عابر السبيل مرة أخرى) . اشربْ . (لزوجته) . لمَ تتباكين ؟ ألا يمكن أن نمزح قليلا ؟ هذا هو المال ، صرّيه : ورقتان من ذوات الروبلات الثلاثة ، وقطعتان من ذوات العشرين كوبيكاً .

آكولينا : والشاي ، والسكر ، اللذي طابتُ أن تأتي بهما ؟

ميشيل ، يُخرج من جيبه سفطاً ويعطيه زوجتَه . تأخذ مرثا النقود والمشتّريات وتذهب إلى غرفة المهملات ، وهي تُصاح منديلها بصمت : ما أسخف النساء ! (يصب لعابر السبيل مرة أخرى) . خذْ ، اشربْ .

عابر السبيل ، لا يشرب : اشربْ ، أنتَ نفسك .

ميشيل : هيا ، لا تتدلّلْ .

عابر السبيل : على صحّتكَ .

اينياس ، لعابر السبيل : لا شك أنك رأيتَ الكثير في حياتك . او ! ما أجمل سترتك ، نظاميّة حقاً ! أين استطعْتَ أن تجدَ مثل هذه السترةَ ؟ (يشير إلى سترته الرثّة) . أنت في غنىً عن إصلاحها ، فهي تلائمك جيداً ، بدون ذلك . آه ! لو كان لي مثلُها ، لأحبّتني النساءُ ! (لمرثا) . أليس صحيحاً !

آكولينا : لا داعي ، يا اينياس ، للهُزْءِ برجلٍ لم يَصْنعْ بك شيئاً .

عابر السبيل : إنما قال ذلك بدافع الجهل .

اينياس : قالتُه بدافع الصداقة . اشربْ .

(يملأ كأسه ، عابر السبيل يشرب) .

آكولينا ، بيد أنك قلت : إن ماءَ الحياة مصدرُ جميع الشرور وأنك سُجنتَ بسبب ذلك .

ميشيل : بسبب ماذا سُجِنْتَ ؟

عابر السبيل ، وقد سكر بشدّة : تألمتُ بسبب عمليات السَطْو(١) .

ميشيل : وكيف ذاك ؟

عابر السبيل : حسناً ! أتينا بيته ، بيت ذي الكرْشْ الضخم . قُلنا له : « هات المال أو دونَك المسدس » . تملّصَ ؛ وكان لا بدّ له من أن يَدْفع ألفين وثلاث مئة روبل .

آكولينا : يا ربي !

عابر السبيل : أردْنا أن نأخذ المبلغ . كان زمبريكوف يقودنا . وفجأةً وصلَ هؤلاء الغربان . فأوْقفونا ووضعونا في السجن .

---

(١) السطو : السطو ذو الأهداف الثورية كان كثير الوقوع في سنة ١٩٠٥ وفيما بعد . وأشهر عملياته عملية جوزيف ستالين الذي استولى بالسلاح على البريد في « تفليس » ، وعملية جوزيف بيلسودسكي الذي أوقف قطاراً للبريد قرب فيلنا . وكان بعض قطاع الطرق يفعلون ذلك لمصلحتهم الخاصة .

آكولينا : واستردّوا المال منكم ؟

عابر السبيل : بلا شك . لكنْ كان من المستحيل عليهم أن يتّهموني . في الجلسة ، قال لي النائبُ العام : « أنتَ سرقتَ المال ؟ » لكني أجبتُه : « اللصوصُ هم الذين يسرقون . أما نحن فنقوم بالسطو من أجل الحزب » . فلم يجدْ مايَرُدُّ به على ذلك . عبثاً حاول أن يجيب ، لم يجد ما يردّ به . فقال : « خذوه إلى السجن » ، أي ضَعوا حدّاً لحياته الحرّة .

اينياس ، لميشيل : ما أمهره ، ابن الكلبة هذا . هو شجاع . (يصبّ له) . اشربْ ، أيها الحيوانُ الوسخُ . . .

آكولينا : أفٍّ ! ما أبذأَ كلامَك !

اينياس : يا جَدّة ، ليس هذا كلاماً بذيئاً ، هذه طريقتي في التعبير ، . . . على صحتك ، يا جَدّة .

(تدنو مرثا من الطاولة وتقدّم الشاي) .

ميشيل : هذا شيء حسنٌ . لا داعي للغضب . ها أنا أقول لمرثا : شكراً . أنا أقدّرها كثيراً ، (لعابر السبيل) ما رأيُكَ ؟ (يقبّل زوجته) . إني اقدّرها كثيراً ، امرأتي ، أقدّرها تقديراً عظيماً . بكلمة واحدة ، امرأتي من الصنف الأول . لا أقْبلُ أن أبدّلها أيَّ شيء في الدنيا .

اينياس : هذا حسن . جَدّه آكولينا ، اشربي . أنا صاحبُ الوليمة .

عابر السبيل : هذه هي قوّة العطالة . قبل قايل كان كلٌّ واحد يُخلد إلى الكآبة ، أما الآن فلا يوجد سوى البهجة ، سوى الاستعدادات الودّية . يا جدّة ، أنا أحبّك ، وأحبّ جميع البشر ، إخوتي الأعزاء .

(يُنشد نشيداً ثورياً) .

ميشيل : كم فعلتْ هذه برأسه ، بعد صيامه .

ستار

الفصل الثاني

« الكوخ نفسه . في الصباح » .

« مرثا وآكولينا . الزوج ينام » .

مرثا ، تتناول فأساً : سأقطّع حطباً .

آكولينا ، تمسك بسطل : كان سيَضْربُك البارحة لولا ذلك الرجل . لكننا لم نره بعدها . أيكونُ قد سافر ؟ لا بدّ أنه سافر .

(تخرجان الواحدة بعد الأخرى) .

ميشيل ، ينزل عن الموقد : عجباً ، ارتفع النهارُ . (يرتدي ملابسه ويحتذي حذاءه) . لا شك أنها ذهبتْ مع العجوز لتأتي بالماء . رأسي يؤلمني ، يؤلمني كثيراً . لا أريدُ بعد الآن ... إلى الشيطان (يصلي ويغسل وجهه) . حان وقتُ رَبْط الجواد .

(تدخل مرثا حاملة حطباً) .

مرثا : هل سافر متسوّل البارحة ؟

ميشيل : لا بد أنه ذهب ، لقد اختفى .

مرثا : ليكنْ . لا شك أنه رجلٌ ذكي . قال إنه كان يكسب خمسين روبلاً في الشهر . لا شك أنه رجل طيّب .

ميشيل : يبدو لك طيباً ، لأنه دافعَ عنكِ .

مرثا : وما أهميةُ ذلك عندي ؟

(ميشيل يرتدي ثيابه) .

مرثا : هل خبّأتَ السكر والشاي ؟

ميشيل : ظننتُ أنّك أخذتِهما .

(تدخل آكولينا ، حاملةً سطلاً) .

مرثا ، للعجوز : هل أخذتِ الأسفاط ، يا أمي ؟

آكولينا : لا علمَ لي بها .

مرثا : وضعتُها البارحة على متّكأ النافذة .

آكولينا : رأيتُ ذلك .

مرثا : وأين هي ؟

(يفتّشون) .

آكولينا : إنّها لمصيبة !

(يدخل جارٌ) .

الجار : قل لي ، يا ميشيل ، هل ستذهب لإحضار الخشب ؟

ميشيل : بدون شك . سأربط الجواد في الحال . لكن انظرْ ، لقد أضعنْا شيئاً .

الجار : عجباً ! وما هو ؟

مرثا : اشترى ميشيل أمس شايا وسكراً من المدينة ، ووضَعها على متّكأ النافذة . لم يخطر ببالي أن أخبّئها . ولم نجد ذلك اليوم .

ميشيل : نحن نشكّ في عابر سبيل نامَ هنا .

الجار : ما هيئة عابر السبيل هذا ؟

مرثا : شخصٌ نحيلٌ وبلا لحية .

ميشيل : وهو يرتدي سترةً رثّةً .

الجار : وهو جعدُ الشعر ، محدّب الأنف ؟

ميشيل : أجلْ .

الجار : صادفتُه الساعةَ . ودهشتُ حين رأيتُه يمشي بسرعة .

مرثا : لا بدّ أنه هو . أكان ذلك بعيداً ؟

الجار : أظنّ أنه لم يَعْبر الجسر بعد .

ميشيل ، يأخذ قبّعته ويخرج مسرعاً مع الجار : يجب أن نلحق به . هذا لصٌ . هو الذي . . .

مرثا : آه ! أيّة خطيئة ، أية خطيئة ! هو بعينه ، من غير شك ...

آكولينا : وإنْ لم يكنْ هو ؟ منذ نحو عشرين عاماً ، شاع أن رجلاً أخذ حصاناً . وتجمّع الناس . قال أحدهم : « أنا رأيتُه عندما فكّ رسنه » . وقال الآخر : « رأيتُه وهو يقوده . لأنّ الحصانَ ، يا عمّ ، كانَ خصيّاً وتُمكن ملاحظتُه بسهولة » . تجمّع الناس ، وبحثوا ، ووجدوا ذلك الرجل في الغابة . قالوا له : « هذا أنتَ » ، فأقسم بالأَيْمان المغلّظة أنه ليس هو . « لا داعي للانتباه إلى ما يقول ... النساء مُحتمّاتٌ في أنه هو » . وقال شيئاً فظّاً . فالتفت إليه ايغور لابوشكين الذي مات ، والذي كان هائجاً ،

ولطمه لطمةً في وجهه دون أن يسأله لماذا وكيف ، وقال له : « هذا أنتَ » . ضربه ضربةً ، وحينذاك أخذ الجميعُ يضربونه بأيديهم ، ويركلونه بأرجلهم ، ضربوه حتى مات . وفي اليوم التالي ، وجدوا اللصَّ الحقيقي ، ولم يكن ذاك الذي ضُربَ لصاً . كان قد ذهبَ إلى الغابة ليقطعَ شجرة . . .

مرثا : بدون شك ، يجب ألا نتّهمه زوراً . ومع أنه في وضع بائس إلا أنه رجلٌ طيب .

آكولينا : سقطَ إلى الحضيض . لا يُرجى خيرٌ من هذا الرجل .

مرثا : أسْمعُ ضوضاءَ هم ، لا بدّ أنهم يقتادونه .

(يدخل ميشيل والجار ، وشيخ وشاب . وهم يدفعون أمامهم عابر السبيلَ) .

ميشيل ، ممسكا بالسفط الذي يحتوي على السكر والشاي : وجدناه في جيب بنطاله ! أيّ سارق ، ابن الكلابة هذا !

آكولينا ، لمرثا : إنه هو ، الحقير ! إنه يَخْفض رأسه . .

مرثا : إنما تكلّم عن نفسه البارحة عندما قال : ما إن يشرب الإنسانُ حتى يسرق كل ما يقع تحت يده .

عابر السبيل : لستُ سارقاً . أنا ساطٍ على الملكية . يجب أن أعمل وأن أعيش . ليس بوسعكم فهمي . افعلوا ما تشاؤون ....

الجار لعُمدة القرية : يجب أن نقوده إلى كبير القرية ، أو إلى مفوّض الشرطة رأساً .

عابر السبيل : قلتُ لكم : افعلوا ما تشاؤون . لستُ أخشى شيئاً ، ويُمْكنني أن أتألم من أجل آرائي . لو كنتم متعلّمين لفهمتوني .

مرثا ، لزوجها : ليكنْ . لقد عثرْنا على السفط . يمكننا أن نتركه ، ولا ضيرَ من ذلك .

ميشيل ، مردداً كلمات زوجته : « ولا ضَيْرَ من ذلك » . أنا بغنىً عن وَعْظِكِ . لولاك لحرْنا كيف نفعل !

مرثا : قلتُ فقط : يستطيع أن ينصرف .

ميشيل : يستطيع أن ينصرف ! بدونك نحار كيف نفعل ، أليس كذلك ؟ صحيح ، يا غبيّة ، يستطيع أن ينصرف . فَلْيَنصرفْ ، لكن يجب أن أقول له شيئاً ، لكي يحسّ بما فعل . (لعابر السبيل) . اصغِ ، يا سيدي ، إلى ما سأقوله . مع أنك في وضع بائس إلا أنك تصرّفتَ تصرّفاً سيئاً ، سيّئاً جداً . غيري كان سيحطّم أضلاعك من أجل هذا ، وكان سيقودك فوق ذلك إلى مفوّض الشرطة ؛ أما أنا فأقول لك الشيء التالي : لقد أسأت التصرّف وما بعد ذلك سوء ، لكنك في وضع بائس جداً ، ولا أحبّ أن أضرّك . انصرف بجاه الله ، ولا تعدْ إلى ذلك في المستقبل . (يلتفت إلى زوجته) . وأنتِ أردتِ أن تعظيني !

الجار : لا داعيَ لذلك ، يا ميشيل . أوه ! أنت مخطىء إذ تشجّعهم .

ميشيل : هذا شأني إن كان هناك داع أم لا . (لزوجته) . أنتِ تريدين أن تعظيني . (يتوقّف ، ينظر إلى السفط ، ويعطيه

عابرَ السبيل بحركة حاسمة ، وهو يلتفت ليَنْظر إلى زوجته) .
هيّا ، خذْ هذا ، تستطيعُ أن تشرب شاياً في طريقك .
(لزوجته) . تريدين أن تَعظيني ؟ هيّا ، هيّا ، لا داعيَ للكلام .

عابر السبيل ، يأخذ السفط بصمت : أتظنّ أنني لا أفهم ؟ (يتهدّج صوتُه) . أنا أفهم تماماً . لو ضربْتَني كما يُضْربُ الكلبُ ، لكان ذلك أقلّ إيلاماً لي . ألا أدرك مَنْ أنا ؟ أنذا شقيٌّ أي منحطّ .

سامحْني بجاه الله .

(ينتحب ، يرمي بحدّة سفطَ الشاي والسكر على الطاولة ويهرب) .

مرثا : الحمدُ لله أنه لم يأخذ الشاي ، ولا لما استطعت أن أعمل شاياً .

ميشيل : أنتِ ، أردتِ أن تعلّميني كيف أعيش .

الجار : آه ! البائس ، ما أشدّ بكاءَه !

آكولينا : ذلك لأنه كان إنساناً ، فيما مضى من الزمن .

ستار